موقعـــــة نصيبين

٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩

للأستاذ السيد كمال درويش

أجمع المؤرخون على أن موقعة نصيبين هى بلا جدال أكبر انتصار أحرزه البطل الفاتح ابراهيم باشا فى حروبه ضد الدولة العثمانية .

حدثت هذه الموقعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٣٩ وبدأت فى الساعة الثالثة بعد الظهر ولم تدم سوى ساعتين ، انجلى بعدها الميدان عن انتصار ساحق للمصريين وهزيمة شنيعة للجيش العثمانى ، ذلك الجيش الذى لاذ أفراده بأذيال الفرار بعد أن تركوا أربعة آلاف قتيل فى الميدان وما يتراوح بين اثنى عشر ألف وخمسة عشر ألف أسير . أما الذخيرة التى استولى عليها الجيش المصرى فقد قدرت بما يقرب من عشرين ألف بندقية وأربعة وسبعين مدفعاً . ومع ذلك فلم تكن هـذه الغنائم على كثرتها شيئاً يذكر بجانب العثور على خزانة الجيش العثمانى التى لم يتمكن العثمانيون فى فرارهم من أخذها ؛ وكان بها من النقد ما قيمته ستة ملايين فرنك ؛ وأخيراً الاستيلاء على خيمة حافظ باشا قائد الجيش بما كان فيها من الأرائك التركية المطعمة بالصدف والأوراق الرسمية وحتى الأوسمة التى كان يتحلى بها ذلك القائد وقعت هى الأخرى فى يد ابراهيم .

ولئن دلت هـذه الغنائم على مدى أهمية ذلك الانتصار من الناحية الحربية والعسكرية البحتة ، فلقد كان لتلك الموقعة الحاسمة من النتائج السياسية ما أدى إلى أن أصبح محمد على قاب قوسين أو أدنى من الجلوس على عرش السلطنة العثمانية بعد أن فقدت سلطانها الذى مات قبل أن تصل إليه أخبار الهزيمة ، وجيشها الذى انهار فى نصيبين وأسطولها الذى انضم بقائده إلى محمد على ؛ لولا التدخل الأوربى وتطور المسألة الشرقية نتيجة لهذا التدخل .

هذه لمحة سريعة عن أهمية هذه الموقعة التى كان بطلها ابراهيم .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن خطورة ذلك الدور الذى قام به ابراهيم خلال تلك الموقعة حتى أحرز ذلك النصر الحاسم ولكى يتبين لنا أهمية ما قام به ابراهيم يكفى أن نعلم أن السلطان العثمانى كان قد استعد لهذه الموقعة استعداداً كبيراً بولاية مصر إذا تم له الانتصار . وكان الجيش العثمانى هو البادىء بالتحدى وباجتياز الحدود المتفق عليها . وكان السلطان قد استعان بمجموعة من الضباط البروسيين لتنظيم الخطط الحربية للجيش العثمانى وإقامة تحصيناته وإعداد وسائل دفاعه وهجومه على أحدث النظم الأوربية . وهكذا أخذ الجيش العثمانى يواصل استعداداته وبناء استحكاماته فى نصيبين حتى إذا انتهى من ذلك بدأ قائده يدس الدسائس ضد ابراهيم تمهيداً للاشتباك فى موقعة فاصلة حاسمة .

وأدرك ابراهيم حقيقة الموقف فلم يأل جهداً فى الاحتياط وفى تنسيق خطته هو الآخر ؛ حتى إذا أشار عليه محمد على بتأديب العدو وتعقبه كتب إلى حافظ باشا يقول : « إذا كنتم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال فما بالكم تدسون الدسائس ؟ هلموا إلى ميدان القتال بصراحة وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض » .

كان جيش العثمانيين يبلغ حوالى أربعين ألف مقاتل وكذلك كان جيش ابراهيم . وكان يقود الجيش العثمانى حافظ باشا ويعاونه أركان حربه من كبار الضباط البروسيين وكان من بينهم هلموت فون ملكته (الذى قاد فيما بعد الجيش الألمانى فهزم به فرنسا أثناء الحرب السبعينية المشهورة وخلد ذكره فى موقعة سيدان) وكان من بينهم فون ملباخ . وعلى ذلك يمكن القول أن الجيش العثمانى كان يمتاز على جيش ابراهيم بأركان حربه الألمان ، وبقوة استحكاماته فى نصيبين ، وبخبرته بميدان القتال ، وبابتداء الهجوم والعدوان ، وبوفرة الجند والذخائر . أما ابراهيم فكان يعتمد على حماسة الجيش المصرى وتماسك أفراده وشجاعة جنوده وحبهم للطاعة والنظام ثم على عبقريته الحربية كقائد .

وأيقن ابراهيم أن عليه إذا أراد النصر أن يفاجىء الجيش العثمانى قبل أن يفاجأ هو بالهجوم . وكان الجيش المصرى مرابطاً فى الشرب من نصيبين . وأدرك ابراهيم أن الهجوم على العثمانيين فى نصيبين مع التعرض لاستحكاماتها مجازفة خطيرة ، لذلك قرر

مهاجمتها من جهتها الشرقيه بعيداً عن الاستحكامات القائمة فى غربها . وقام ابراهيم بالإلتفاف بجيشه جنوب نصيبين حتى وصل إلى شرقها وعبر فى سبيل ذلك القنطرة القائمة على النهر ثم بدأ ينظم موقعة فى شرق المدينة . والواقع أن ابراهيم وهو صاحب فكرة القيام بحركة الإلتفاف هذه كان يدرك مدى خطورتها إذ كان يحتمل أن يخرج العثمانيون من استحكاماتهم لمهاجمته أثناء القيام بها فى الجنوب من نصيبين أو أثناء عبوره القنطرة القائمة على النهر ؛ لذلك أتقن تلك الحركة وقام بتنفيذها بمنتهى الدقة والحرص والنظام حتى قال الضباط الألمان عنها فيما بعد : « لقد كانت حركات الجيش المصرى تسير طبقاً لخطط الجيوش الأوربية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية » .

وكما كان النجاح فى تنفيذ تلك الحركة دليلا على دقة ابراهيم وسرعة بديهته وحسن تصرفه وانتهازه للفرص وإدراكه الصحيح لما يتطلبه الموقف ؛ نجدها أيضاً كانت دليلا على جمود الجيش العثمانى وجمود قائده وتردده فى انتهاز فرصة الهجوم على الجيش المصرى أثناء التفافه معارضاً بذلك نصيحة مستشاريه الألمان الذين غضبوا فقدموا استقالاتهم ولم يسحبوها إلا حين قيل لهم : « إن الجندى لا يستقيل قبل الوقعة » . لقد كانت خطة حافظ باشا ترمى إلى تفضيل البقاء فى نصيبين بدلا من القيام بالهجوم فى تلك المنطقة المكشوفة ، ولذلك أخذ فى إقامة استحكامات جديدة وعلى عجل فى الجهة الشرقية حتى يعتمد عليها جيشه أثناء الوقعة .

ونظر ابراهيم فوجد القائد العثمانى فى تسرعه قد أهمل تحصين أكمة مرتفعة تجاه جناح جيشه الأيسر ، وتقع فى الشمال الشرقي من نصيبين . عند ذلك اغتنم تلك الفرصة فأرسل فرقة من جيشه فاحتلتها وبدأت تقيم فيها الاستحكامات وتنصب المدافع . ولم يتنبه حافظ باشا إلى أهمية تلك الأكمة إلا بعد فوات الأوان فأرسل فرقة عثمانية لاسترجاعها ولكنها ردت فى الحال على أعقابها .

وواجه ابراهيم بجيشه شرق نصيبين وأدرك أن الجيش العثمانى قد ركز قوته كلها فى الميمنة والقلب . ولذلك كانت ميسرته أضعف جهاته . وكانت الأكمة التى احتلها ابراهيم قد كشفت ذلك الجناح بأسره فجعلته تحت رحمته . وفى ذلك الحين أدرك إبراهيم أهمية احتلال تلك الأكمة كما أدرك ذلك أعداؤه ، لا سيما المستشارون الألمان الذين قالوا عنها فيما بعد : « لقد كانت حركة احتلال الأكمة هى مفتاح النصر فى هذه الوقعة » .

عند ذلك قرر إبراهيم تركيز الهجوم على الميسرة فى الوقت الذى يهاجم فيه العدو من جميع الجهات .

وبدأت الوقعة ، ودوى صوت المدافع ، واشتد الضرب من الجانبين وسقط القتلى والجرحى واستبسل العثمانيون . ونفدت فى أثناء ذلك ذخيرة المدفعية المصرية ، فخفتت أصواتها انتظاراً للامداد فانتهز العثمانيون الفرصة ، فصبت المدفعية التركية نارها بشدة على مواقف المشاة المصريين ، فتقهقرت الصفوف الأولى ، وكانت فرصة نادرة لهجوم الأتراك على مواقع المصريين ولكن إبراهيم يظهر بنفسه ويقف بين الجنود فى تلك اللحظة الحرجة فيثبت المنهزمين ويجدد الحماسة فى النفوس فيبدأ الهجوم من جديد وتصل الذخائر فيشتد ضرب المدفعية المصرية ويستمر الضرب والهجوم حتى تشتت شمل الجنود غير النظاميين فى الجيش العثمانى ؛ فأحدثوا الاضطراب بالجيش ، وتحطمت صفوف الجند النظاميين وارتبك الجيش كله فلاذ أفراده وسط الذعر والخوف بالفرار ، وكما فعل الجيش فعل قائده الذى فضل الفرار على الوقوع فى أسر المصريين .

ويسير إبراهيم فى ميدان المعركة فيجد خيمة حافظ باشا ، وينظر منها فلا يجد أحداً من الأعداء أمامه ، فيكتب إلى أبيه ليعلمه بالنصر ثم يقول له فى ذيل خطابه : « وإنى أود أن أقتفي أثر الأعداء ولكنى لا أجد منهم أحدا » .

حقاً ؛ لقد كان إبراهيم قائداً حربياً ممتازاً . ولئن دلت موقعة نصيبين على مهارة الجيش المصرى وكفاءته فإنها لتدل أيضا على ما امتاز به قائده من عبقرية نادرة مكنته من إحراز ذلك النصر الحاسم الذى يعد بحق من أعظم الانتصارات الحربية فى التاريخ .

كمال السيد درويش
مدرس بمدرسة الرمل الثانوية
وعضو الجمعية التاريخية الخديوى جمعية فاروق